الإتجاه الليبرالي (رفاعة الطهطاوي)

لقد مثل رفاعة بن بدوي بن رافع الطهطاوي الذي ولد في 15 تشرين الاول / اكتوبر عام 1801 في مدينة طهطا التابعة لمحافظة سوهاج في صعيد مصر الإتجاه الليبرالي, ومن أهم انتاجاته الفكرية هي :-

1- تخليص الابريز في تلخيص باريز .
2- مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية .
3- المرشد الامين في تربية البنات والبنين .

- **هل يعتبر الطهطاوي من المبشرين بالفكر الديمقراطي الليبرالي ؟**

بعد التحاق الطهطاوي بالبعثة الدراسية الى باريس التي كان لها الاثر الكبير في شخصيته فقد كانت الاعوام الخمسة التي قضاها في باريس من 1826الى 1831 من أهم أعوام حياته وذلك بسبب :-

1- ما اكتسبه من معرفة دقيقة باللغة الفرنسية وبمشاكل ترجمتها الى العربية .
2- كما انه طالع كتبا كثيرة في موضوعات التاريخ القديم والفلسفة الاغريقية والجغرافية والمنطق .
3- كذلك درس سيرة نابليون وبعضا من الشعر الفرنسي .
4- التعرف على فكر بعض المفكرين البارزين في القرن الثامن عشر وخصوصا كتابات (فولتير وروسو ومونتسيكيو) .

وهذه الامور كلها وما تركه عصر التنوير الفرنسي كان له الاثر البالغ على تفكير الطهطاوي وأدى بالتالي انعكاسه الكبير على تفكيره المصري , فقد استطاع الطهطاوي أن يقوم بمشاهدات دقيقة للعالم الحديث والقديم معاً , وهذا ما ساعده على اقتباس معرفة واسعة عن المؤسسات والعادات السائدة في المجتمع الفرنسي .

ولذا فما شاهده الطهطاوي زاد من اعجابه بشكل كبير بالفكر الليبرالي وحاول ان يضع كل أسس هذا النمط من أنماط التفكير والسلوك والممارسة السياسية بين يديّ قومه , لذلك اعتبر الطهطاوي من المبشرين بالفكر الديمقراطي الليبرالي في ربوع الشرق التي الفت طويلا نمط الحكم الفردي .

- **هل تحقق الفكر السياسي الديمقراطي الليبرالي الذي بشر به الطهطاوي؟**

ان الفكر السياسي الديمقراطي الذي اخذت معالمه في البروز في تلك الفترة لم يكن مناسباً مع مستوى التطور المادي والاقتصادي , لذلك فان مصر التي دخلت عصر التنوير اقتصادياً وفكرياً منذ عهد محمد علي باشا , الى حد ما بقي نظام الحكم فيها اقرب الى نظم العصور الوسطى الاقطاعية .

ولذا لم يكتب لهذا الفكر النجاح بمعنى الكلمة .

- **ما هو مفهوم السياسة عند الطهطاوي ؟**

يميز الطهطاوي بين نوعين من السياسة الاول سلبي والثاني ايجابي :

- **الاول** : هو الحيلة والخداع والتدبير مما لا يليق الاَّ بالمملكة الجائرة , وهذا المعنى لا يريد للناس تعلمه وممارسته .
- **الثاني** : يشير الى السياسة التي عليها مدار انتظام العالم , والتي تتضمن فهم اسرار المنافع العمومية التي تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة والرعاية في مقابلة ما تعطيه الرعية من الاموال والرجال للحكومة .

وبالتالي يعرف الطهطاوي السياسة : بأنها **البحث في علم تدبير المملكة والخوض فيه محادثة ومناقشة وكتابة** فهي تسمى

- **فن السياسة الملكية .**
- **فن الادارة .**
- **علم تدبير المملكة .وعليه فان الدولة تدار وفقا لهذه الاصول والاحكام .**
- **تعميم مفهوم السياسة ؟**

دعوة الطهطاوي لذلك جاءت من خلال تأثره واعجابه بالفكر السياسي الديمقراطي الغربي وتأثره بما كان سائداً في اوروبا من حقوق للمواطنين، إذ اعتقد بضرورة تعلم السياسة انطلاقاً من ادراكه لأهمية السياسة في حياة الشعب والتي تتضح بقوله " **لولا السياسة ما قامت لنا دول , وكان اضعفنا نهباً لاقوانا".**

ومن خلال ذلك وجه الطهطاوي نقده الحاد الى المعتقد المتضمن ان السياسة من اسرار الحكومة الملكية , لا ينبغي علمها إلاَّ لرؤساء الدولة

ونظار الدواوين , فهو يدعو بدلاً من ذلك , الى تعميم تعليم مبادىء السياسة لكافة ابناء الشعب مما يضمن تعليمها المصلحة العمومية .

- **أقسام السياسة عند الطهطاوي ؟**

يقسم الطهطاوي السياسة الى خمسة اقسام :

1- **السياسة النبوية** : وهي السياسة التي يختص الله بها من يشاء من عباده , كما قاله الله تعالى (الله اعلم حيث يجعل رسالته) وهو الذي يهدي لاتباعهم من يشاء .
2- **السياسة الملوكية** : وتتضمن حفظ الشريعة على الأمة , وإحياء السنة , والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
3- **السياسة العامة** : وتعني الرئاسة على الجماعات , كرئاسة الامراء على البلدان , أو على الجيوش وترتيب احوالهم , وهذه السياسة هي التطبيق العملي للسياسة العليا على المصالح المختلفة والاقاليم المتعددة للدولة.
4- **السياسة الخاصة** : هي السياسة المنزلية وتتضمن معرفة كل إنسان حال نفسه وتدبير أمر بيته وما يتعلق به .
5- **السياسة الذاتية** : وهي تفقد الانسان افعاله واحواله واقواله واخلاقه وشهوته وضبطها بزمام عقله .

- **كيف ينتظم المجتمع عند الطهطاوي ؟**

اعتقد الطهطاوي بحاجة الانتظام العمراني الى قوتين وهي :

1- **القوة الحاكمة** : هذه القوى هي بمثابة امر مركزي تتضمن ثلاثة انواع من القوى - قوة تقنين القوانين , وتنظيمها - قوة القضاء وفصل الحكم,- قوة التنفيذ للاحكام بعد حكم القضاة بها .

ولذا نلاحظ ان الطهطاوي يميز بين السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية لكي لا تكون قوة مطلقة لا حدود لتصرفاتها أو ممارساتها وانما تكون مشروطة ومقيدة بالدستور وبالقانون , لذلك هو يقر ويؤكد بضرورة الفصل بين السلطات من أجل منع السلطات بأن تكون قوة مطلقة باعتبار ان القوة المطلقة تؤدي الى الاستبداد , وجاءت هذه الفكرة بإعجابه وإيمانه بطبيعة النظام الديمقراطي الحديث الذي تعرف عليه وشاهده .

ومن ثمَّ فان القوة الحاكمة (هي القوة الجالبة للمصالح , والدارئة للمفاسد) .

2- **القوة المحكومة** : هذه القوة تتمثل عند الطهطاوي بالشعب , أو الرعية وهي القوة الاهلية المحرزة لكمال الحرية , المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الإنسان في معاشه وتحصيل سعادته دنيا واخرى .

- **ما هو تصور الطهطاوي للحاكم الاعلى في الدولة ؟**

لقد كان موقف الطهطاوي توفيقي فهو مزيج من التصور الإسلامي لغالبية المدارس الإسلامية , والتصور الذي شاع في الممالك الدستورية عن هذا الحاكم .

- **كيف يكون حساب الحاكم الاعلى عند الطهطاوي ؟**

يعتقد الطهطاوي ان ولي الامر هو رئيس امته , وصاحب النفوذ الاول في دولته , وانه خليفة الله في ارضه , وان حسابه على ربه, فليس عليه في فعله مسئولية لاحد من رعاياه , ويبدو ان الطهطاوي حين قرر ان حساب الحاكم على ربه , فانه قصد عدم خضوع الحاكم للحساب المادي من قبل الشعب الذي قد يتمثل في احالته للمحاكمة أو عزله (فالملك حسب وجهة نظر الطهطاوي حاكم متصرف بالأصول المرعية في مملكته وانه يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين ، وعليه فهو لا يتصور إرادة هذا الحاكم مطلقة من أية ضوابط أو قيود) فلا يجوز محاسبته لانه باعتقاد الطهطاوي مقيد اصلاً بالقوانين التي تحدّ من سلطته المطلقة .

اما الحساب المعنوي للحاكم فهو أمر قائم لا اعتراض عليه لدى الطهطاوي و يتمثل في الانواع الآتية:

- تذكير الحاكم الاعلى بالخطأ الذي وقع منه أو فيه .
- وجود رأي عام مستنير ويقظ ومتحرك في المجتمع يمارس اللوم العمومي .
- التاريخ باعتباره قوة من قوى الحساب المعنوي للملوك والحكام، إذ اكد الطهطاوي على ضرورة تعليم التاريخ لابناء

الامـــراء والســـلاطين , حـــتى تكـــون عـــبرة وعظاتـــه قـــوة معنويـــة تجذبهم الى جادة الصواب والالتزام بالشريعة والقانون .

- **ماهي صفات الحاكم الاعلى وكيفية سياسة الرعية عند الطهطاوي ؟**

أولاً : يتطرق الطهطاوي الى صفات الحاكم الاعلى ويمكن تبيانها

- ان يتبصـــر فـــي العواقـــب – أي ان يستحضـــر في دائم اوقاتـــه وفي حركاتـــه ان الله ســـبحانه وتعـــالى اختـــاره لرعايـــة الرعيـــة – ان الله ســـبحانه قـــد جعـــله ملـــكاً عـــلى الرعيـــة ولـــيس بمـــالك لهـــا – أي انـــه راعيـــاً لرعيتـــه , لا يكـــون أكلا لها – ان يرشد بافعاله رعيته الى سبيل الرشاد الصحيحة.
- ثانيـــا : أمـــا عـــن كيفيـــة سياســـة الرعيـــة فينصـــح الطهطـــاوي الحـــاكم بان يعامـــل احـــرار النـــاس بمحـــض المـــودة , بيـــنما يعامـــل العامـــة بالرغبـــة والرهبـــة وان يســـوس الســـفلة بالمخافـــة الصـــريحة كـــما انـــه يطلـــب مـــن الحـــاكم ان يكـــون مـــن الذين يمزجون اللين بالخشونة للإهابة.
- **ما هو مفهوم الحرية عند الطهطاوي ؟**

كل فـــرد مـــن افـــراد الهيئـــة الاجتماعيـــة يكـــون حـــراً حيـــنما تبـــاح له حريـــة التنقـــل بـــدون مضـــايقة ولا اكـــراه , وحريـــة التصـــرف كـــما يشـــاء في نفســـه ووقتـــه وعمـــله ولا يمنعـــه مـــانع الاَّ المـــانع المحـــدد بالشـــرع أو السياســـة , كـــما تتضـــمن الحرية :

- عدم نفي الانسان من بلده أو معاقبته فيه إلاَّ بحكم شرعي أو سياسي .
- وان لا يضيق عليه في التصرف في ماله وفق ما يشاء .
- وان لا يحجر عليه إلاَّ بإحكام قوانين بلده .
- وان لا يكتم رأيه في شيء بشرط عدم اخلاله بقوانين بلده .

وعليـــه فالحريـــة عنـــد الطهطـــاوي هي رخصـــة (إباحـــة) العمـــل المبـــاح مـــن دون مـــانع غـــير مبـــاح ولا معـــارض محضـــور , ويـــوضح ذلك بقـــولهُ ان حريـــة النـــاس تنحصـــر في حقهـــم ان يفعلـــوا المـــأذون لهـــم شرعـــاً , وان لا يكرهـــوا عـــلى فعـــل المحظور في مملكتهم.

- **أقسام الحرية**

ويصنف الطهطاوي الحرية الى خمسة اصناف هي :

- **الحريــة الطبيعيــة** : وهي الــتي خلقــت مــع الإنســان وانطبــع عليهــا ، ممــا لا ضرر فيها على نفسه ولا على اقرانه.
- **الحرية السلوكية** : التي هي حسن السلوك ومكارم الاخلاق.
- **الحريــة الدينيــة** : وهي حريــة العقيــدة والــرأي والمــذهب ، بشــرط ان لا تخرج عن أصل الدين.
- **الحريــة المدينــة** : وهي الحقــوق المتبــادلة لافــراد المجتمــع فــيما بيــنهم ، الذيــن يتضامنون على اداء حقوق بعضهم لبعض .
- **الحريــة السياســية** : وهي تــأمين الدولة لــكل فــرد مــن اهاليهــا عــلى أملاكــه الشــرعية ، واجــراء حريتــه الطبيعيــة بــدون ان تتعــدى عــلى حــريات الاخــرين ، وبهــذا يبــاح لــكل فــرد ان يتصــرف فــيما يملكــه جميع التصرفات الشرعية.

ان مــن واجــب الحكومــة – كــما يــذهب الطهطــاوي - المحافظــة عــلى ممارسة أشكال الحرية الخمسة.

- **مفهوم المساواة عند الطهطاوي ؟**

لم يخطــر ببــال الطهطــاوي ان تكــون المســاواة بــين النــاس مســاواة اجتماعيــة واقتصــادية بــل نجــده قــد نفــى صراحــة ان تكــون المســاواة الاقتصــادية والاجتماعيــة واردة عنــد الحــديث عــن المســاواة السياســية ,فقــد ركــز الطهطــاوي عــلى المســاواة السياســية الــتي تعــني التســوية بــين المــواطنين أمام القانون وفي اجراء الأحكام .

- **قضية الخروج على السلطة**

يؤكد الطهطاوي على ضرورة منع خروج الرعية على سلطة الحاكم الاعلى اعتقاداً منه لمنع الاختلال الداخلي , وحسم عرق الفتنة ، وهكذا يتضح ان الطهطاوي لم يكن من المؤمنين بحق الشعب بالخروج على سلطة الحاكم الذي قد يثقل على رعيته شيء من احكامه , وان عليهم الصبر لحين اهتدائه للخير والعدل وزوال الضير , وبموجب ذلك يمكن اعتبار الطهطاوي من أولئك المؤمنين بعدم اللجوء الى العنف في عملية التغيير السياسي في الدولة ، كما يؤكد على ولي الأمر:

- ان يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته.
- وان ينزل نفسه منزلتهم .
- وكل ما يحبه لنفسه يحبه لهم ويؤكد ايضاً على وجوب طاعة الرعية الكاملة لولي الأمر ويستند في ذلك الى الأية القرانية " اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " .

- **مقاييس الشرف الاجتماعية**

يبين الطهطاوي ان المجتمعات الشرقية عرفت مقاييس معينة للشرف تتمثل في :

- الحسب المتمثل في المال الكثير الموروث.
- المناصب المحصورة توليها على افراد الاسرة.
- النسب الذي يربط وجهاء المجتمع بالعائلات الكبرى ذات التاريخ السياسي أو الإداري أو الديني.